مناهج نقد النص الشعري في مجلة المورد (1990م – 2000م)

د . عبدالرحمن مرضي علاوي

جامعة بغداد . العراق

فضاء المناهج النقدية

ان المناهج النقدية الأدبية الحديثة قد شهدت تطوراً ملموساً ونقلة نوعية حينما اتجهت إلى ذات الأشياء ووظائفها من غير ان تهمل الظروف المصاحبة لخلق النص ولا موقعه من الأعمال بين نظائره[1].

اضطلعت اللسانيات وفروعها المعرفية بسبر ماهية الأشياء انطلاقا من داخلها والوصول عن طريق العام إلى الخاص،فخرجت بذلك عن المواضعات التقليدية التي توضع عليها في النقد منذ أرسطو إلى عصرنا الحديث وما يجدر بالاهتمام ان تشريح البنية وتحليلها صار يختلف نظرياً وعملياً عن العمل النقدي[2].فالنقد يفترض مُسبقاً محوراً فنياً يلقي اجرائيته على النص،ففي المنهج النفسي، أو الاجتماعي، أو التاريخي، تُكشف عظمة النص بقدر ما تكتشف عظمة المدخل إليه[3].

ان مناهج النقد الأدبي تدخل إلى متن النص الأدبي بسلاح خارجي،وتصور مسبق وتقييم الأشياء بمنظور مجزأ عدته سلفاً وتحاول إثباته وإقناعه بجدواه،أما التحليل فهو تفكيك النص وتفتيته بخبرة معرفية وموضوعية تبدأ منه وتنتهي به[4]،فهو ـ أي التحليل ـ عملية لا تحتمل التجريب ولا تفترض ولا تتصور دائماً، أي التعامل بما هو موجود ،فتسعى إلى فرز وحداته وفصل مكوناته البنائية وتحولها إلى معادل موضوعي ،وتعيد تشكيله من جديد.

ان النقد يخترق الأشياء من مكان، أو موضع، أو زمن معين ليعرف ماهيتها، ويستعمل النقد اقصر الطرق وأيسرها،أما التحليل فهي عملية كلية شاملة تستوعب النقد وغيره.

المناهج السياقية:

النص الأدبي هو المرتكز الأساس لاجتماع كل المناهج النقدية على اختلاف مسمياتها ووسائلها التي تتبعها،فكل واحد منها يتعامل مع النص الأدبي وفق معاييره التي وضعها لنفسه،وبوساطتها يتمكن الناقد من دراسة النص الأدبي وإصدار حكم معين بحقه.

بعضها يستعين بالمظاهر الخارجية للنص من ظروف بأنواعها بوصفها وسيلة مساعدة لفهم النص الأدبي،فهذه الظروف تُعد الإطار المعرفي المحيط بالنص،وهذا الإطار يمثل المهاد النظري الذي تأسست عليه تقنيات القصيدة عامة وتقنيات الصورة خاصة،ولا يستطيع الناقد أو المتلقي ان يُدرك هذه التقنيات ويقف عندها إلا بالرجوع إلى الإطار ـ المهاد)[5].

هذا عمل كل المناهج النقدية السياقية التي تدرس النص الأدبي في ضمن السياق نفس أُنتج فيه النص الأدبي،فتسعى في ضوء هذا السياق دراسة النص الأدبي وكشف ما يحويه من إبداع أدبي[6]،أي أنها تهتم كثيرا بما حول النص وأثرها فيه. ولاسيما مناسبة ولادة النص الأدبي،فهي مهمة جداً فالأمر مشابه جدا لسبب نزول النص القرآني الكريم،فسبب النزول مهم جدا للمفسرين في تفسير آيات السورة الكريمة ،فلا (يمكن ان نفهم النص الأدبي إلا إذا فهمنا الواقع المحيط به أو الذي أنتجه)[7].

لكن يعاب على المناهج السياقية كما اشرنا إنها تعالج النص من الخارج دون الغور في أعماقه فهي تهتم بالظروف المحيطة بولادة النص أكثر من اهتمامها بالنص ذاته،فهي تتخذ من مناهجها (وسيلة لخدمة حقلها المعرفي الذي تشتغل عليه)[8].وفي ضوء ما تقدم فانه يجب على كل ناقد ان يعلم حقيقة ان النص الأدبي ينماز بتعدد المعنى أي انه لا يمكن حصره في مدلول واحد،فهو أي النص الأدبي منشطر الدلالة لا تُستعمل معه لغة الجزم[9]؛بل هو نص يقبل كل الاجتهادات النقدية بحقه من قبل النقاد.وهذا بحد ذاته ـ تعدد القراءات النقدية ـ إثراء للمكتبة النقدية .

المنهج التاريخي:

يقوم المنهج التاريخي على دراسة الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية للعصر الذي ينتمي إليه الأدب،ويتخذ منها وسيلة أو طريقة لفهم الأدب وتفسير خصائصه واستجلاء كوامنه، وغوامضه،ويدعو إلى دراسة الفنان أو الأديب بوساطة الظروف المختلفة التي نمته، أو أوجدته، أو أثرت فيه،ويتناول هذا المنهج دراسة البيئة وعوامل التغيير فيها،فالأديب ابن بيئته وزمانه والأدب نتاج ظروف سياسية واجتماعية يتأثر بها ويُؤثر فيها[10].

ان معرفة الظرف الذي رافق ولادة النص الأدبي مهم جدا عند أتباع هذا المنهج لأنه يساعد على فهم فهما جيدا يساعد على فك شفراته وتحليله[11].

علما ان هذا المنهج هو منهج (حساس إذا فقد فيه صاحبه توازنه زلت به قدمه فصار مؤرخاً)[12].

من عيوب هذا المنهج كما يقول سيد قطب رحمه الله،(الاستقراء الناقص،والأحكام الجازمة،والتعميم العلمي)[13]،فهو ـ أي المنهج التاريخي ـ يتخذ من النص وثيقة تاريخية لإثبات حقيقة يسعى الناقد إلى إثباتها أو تأسيسها ويتجاهل القضايا الفنية التي يحويها النص الأدبي[14]

ومن الدراسات التي اعتمدت هذا المنهج (الإلهة الإناث في الموروث الأسطوري والشعري قبل الإسلام) للدكتور احمد إسماعيل النعيمي[15].

تبين المنهج الذي اتبعه الناقد في رصده لمكانة المرأة ودورها الفاعل في المجتمعات الإنسانية عبر العصور التاريخية المختلفة ولاسيما عصر ما قبل الإسلام من منظور الفكر الأسطوري ألا وهو المنهج التاريخي.

ابتدأ الناقد برصد مكانة المرأة ودورها التاريخي الواقعي في المجتمعات الإنسانية،وتتبع مفهوم وبواعث الأسطورة،ولعل ما لفت نظري إلى ما هو جديد عن تتبع الناقد ضمن موضوع (المخلوقات الخرافية في الشعر الجاهلي) (في أن بواعث تبلور المعتقد الأسطوري في الفكر الإنساني ترجع إلى ثمرة جهود الإنسان البدائي في فهم طبيعة الكون،إذ كان ما حوله من مدهشات الكون وأعاجيبه،مما لم يستطع استيعابها علميا،حمله أن يتوهم تفسيراً،أو يتخيل أصولاً ووقائع يرتاح إليها وتزيل حيرة نفسه)[16].

جعل الناقد منطلقات لتتبع هذه الأساطير وصولاً إلى الإلهة الإناث،فقد عبر(عن اهتداء الإنسان إلى وجود آلهة انبثاقاً من فكرة،فقد كان يميل إلى تصور العالم الخارجي على نحو شبيه بتصوره لذاته؛ إن وجود المرأة وتخصصها بعملية التكاثر والإخصاب والنسل،أوحى له ان يكون مجتمع الإلهة على غرار وضعه من الصنعة)[17].

يبدو ان الغور في هذا الموضوع فيه نوع من التعقيد ،فشرعت في بيان كيفية انطلاق الناقد في تصوير المرأة عبر العصور التاريخية ابتداء من الفكر الإنساني.

فمن هذا المنطلق بدأت النظرة لكل ظاهرة على أنها تزاوج بين عنصرين ذكري وأنثوي ولاسيما تزاوج الشمس والقمر،وصولاً إلى العصر الجاهلي حيث جعل القاسم المشترك بين الشمس والمرأة هو النور والضياء للخصب والنماء والحياة.

وتتبع الناقد بعد هذه المزاوجة بين الشمس والمرأة وكيف أن المرأة تلعب دوراً واقعياً في الملاحم التاريخية والأسطورية،إذ تحدث عن رمز الأم المقدسة التي استقرت رمزاً للحب والجمال والديانات والمجتمعات ،ففي الديانة السومرية اسمها(غشتورت)وفي المجتمع الروماني(كيثيريا).

وما يمكن وصفه لهذا التحليل أنه اتبع منهجاً مميزاً في ترتيبه وتتبعه للإلهة الإناث،ومن المآخذ التي يمكن تسجيلها عليه أنه أبعدنا عن الصورة الجمالية للنصوص الشعرية التي وردت فيها الآلهة الإنسان وهو مأخذ عام على المناهج السياقية.

المنهج النفسي:

ان النص الأدبي كما نعلم هو نتاج أديب ما في بيئة معينة اثر حالة نفسية عاشها الأديب كان لها الأثر الكبير في ولادة هذا النص،وهذا النص (يتضمن دلالاتٍ ورموزاً متعددة يجب التركيز عليها،وإبرازها لنعمق فهمنا للأثر الأدبي)[18]،ولاسيما الشعر الذي (يعتمد على شعور الشاعر بنفسه وبما حوله شعوراً يتجاوب هو معه،فيندفع إلى الكشف فنيا عن خبايا النفس أو الكون استجابة لهذا الشعور)[19].

وقد كان في بدايته وحتى بعد تطوره يحصر دراسته في تحليل النص الأدبي وفك شفراته معتمدا على المفردة وما توحيه من معنى ظاهر وخفي حتى ظهور النفس على يد الطبيب النمساوي سيغموند فرويد الذي فسر السلوك البشري ورده (إلى منطقة اللاوعي(اللاشعور) التي هي خزان لمجموعة من الرغبات المكبوتة التي تُشبع بكيفيات مختلفة،فقد نحلم بهذه الرغبات في أحلام اليقظة أو النوم،ولقد جسدها في مجموعة من الأعمال الإبداعية نحو الشعر ،والرسم، والموسيقى..)[20].

ويرى فرويد ان ولادة العمل الأدبي جاءت بفعل كبت يمر به صاحب الإبداع،فـ(الأدب تعبير مقنع،أو انه تحقيق لرغبات مكبوتة ـ قياساً على الأحلام ـ وان هذه المقنعات تعمل حسب مبادئ معروفة)[21].

ومن الدراسات النقدية التي اعتمدت هذا المنهج (ظاهرة الاغتراب في شعر طرفة بن العبد،دراسة في دلالات اللغة وإيحاءاتها) للدكتور عبدالفتاح نافع[22].

تركزت دراسة الناقد بداية في إعطاء نبذة موجزة عن اغتراب الجاهليين والإرهاصات الاغترابية في شعر طرفة،وفره وفلسفته ورؤيته للحياة والمصير.

وجد الناقد في ظهور اغتراب الشعراء الجاهليين صورة لقهر الطبيعة وتسلط القبيلة،وان انقياد الفرد الأعمى للقبيلة كان يخلق في نفسه حالة من عدم الاستقرار وعدم التوازن،ويرسم على وجهه علامات الكآبة والحزن،وتبين في ضوء تشخيص هذه الحالة انه اتبع المنهج النفسي فهو خير وسيلة لدراسة هذه الظاهرة.

وعند دراسته لإرهاصات الاغتراب في شعر طرفة وجد ان بعضها ذاتياً نابعاً من معاملة الأهل والآخرين وبعضها عاماً يرتبط بنهج القبيلة وتقاليدها ،وهذه القيود كما نعلم تحد من إبداع الشاعر وتضع العراقيل في طريق تفوق الشاعر فالشاعر له حرية التعبير وفي الوقت نفسه هو ملزم بان يكون ناطقا صادقا عن معاناة المجتمع الذي ينتمي إليه.

جاء جل حديث الناقد عن الصراعات النفسية التي كان يعيشها وانعكاسها على نتاجه الشعري؛ بسبب عوامل اجتماعية وبيئية وغيرها.هذا يعني ان الناقد انصرف إلى دراسة الحالة النفسية للشاعر وابتعد عن دراسة الشعر بما يمتاز به من صور جميلة وأخيلة أروع وهذا ليس خللا في الناقد وإنما هذه إجراءات المنهج النفسي الذي يهتم بهذه الأمور.

المنهج الأسطوري:

الشعر العربي كما عرفه قدامة بن جعفر(قول موزون مقفى يدل على معنى)[23]، والمعنى بمفهومه الحديث نقصد الصور واهم ما في الخيال عنصر الخيال الذي هو تشكيل سحري لا يقدر عليه إلا الأديب الفنان الذي يستطيع بوساطته تشكيل أجمل الصور الموحية والمؤثرة في المتلقي،والشاعر كما نعلم يستعين بثقافته في تغذية خياله بما يضمن له نسج أشعاره بأفضل ما يكون،وتعد الأسطورة مكونا أساسياً في هذه الثقافة التي تصب في بناء القصيدة العربية الحديثة فهي (تمتلك (طاقة دلالية إضافية،ومسالة مفتوحة للتعبير الشعري)[24]، والشاعر يدرك جيداً ان استعمال الأسطورة له أثره الايجابي المهم في إثارة المتلقي وشده نحو الاندماج مع النص والتفاعل معه فبعض الأساطير له دلالات مهمة وذكرها في النص بالية جديدة تضمن لها ـ للأسطورة ـ حياة جديدة تنبض بالحيوية والتجديد[25]، فأكثر الأساطير كان رمزا للرعب إذا ما ذُكرت على مسامع الناس فالشاعر الحديث قد أحسن توظيفها بشكل جديد له أثره في إزالة هذا الرعب،وتوجد غايات أخرى كثيرة يسعى إليها كل شاعر في نظمه لشعره.

ومن هذا الدراسات التي استعانت بهذا المنهج (المخلوقات الخرافية في الشعر الجاهلي) للدكتور عبدالرزاق خليفة حمود[26].

تتبع الناقد مفهوم مصطلح الخرافة في اللغة،فوجد أنها لم ترد في القران الكريم بالمعنى الذي سادت عليه في عصر ما قبل الإسلام المستمدة من عالم الخيال.

وهنا لابد من وقفة نوضح فيها مفهوم(الخرافة) أو ما يعرف حديثاً بـ(الأسطورة) هو تصور ارتباط غيبي بوجود أرواح خفية يسميها العرب جنًّا،ولكن هذه الظواهر في ذلك العصر كانت تصور حقيقة بسبب عوامل اجتماعية ونفسية وحتى تاريخية وسنبين ذلك في تحليل الناقد.

وقف الناقد على مصطلحات هذه المخلوقات الخرافية وهي (الجن والسعلاة والهامة والصدى) غير ان هذه الأساطير ضاعت مع ضياع الكثير من الشعر الجاهلي.أما العوامل المؤثرة لتصوير تلك الخرافات حقيقة في عصر ما قبل الإسلام نلحظه من بحث الناقد، فهم كانوا يعيشون في بيئة صحراوية قاحلة تتراود إلى مسامعهم أصوات تثير عندهم الخوف وكأنها أصوات أشباح لم ترها أعينهم فالعامل المكاني له أثره في إثارة تلك الخرافات.

والعامل النفسي هو الآخر كان له سببه في ذلك الخوف ،وقد أجاد الناقد في إيضاح هذا العامل بأسلوب أدبي بارع وهذا لا يعني انه لم يسلم من بعض المآخذ فهو يرى ان العرب بالغت في الأفكار الخرافية وهذا مما لم نجده فان لكل عصر حوادثه لعل الخرافة شاعت في ذلك العصر فلا يمكن عدها من المبالغة.

رغم براعة الناقد في تصوير المنهجين النفسي والاجتماعي لأسباب ظاهرة الخرافة لكن لم نجده واضحاً في إظهارهما إلا بعد تعمق في دراسته وربما فعل الناقد ذلك عن قصد لتشويق القارئ وشده نحو متابعة القراءة فهكذا أسلوب يكون مشوقا ممتعا للقارئ أكثر من غيره.

الهوامش:

1. يُنظر: مناهج البحث الأدبي،دراسة تحليلية ،سعد ظلام،جامعة القاهرة،ص/8.
2. يُنظر: مناهج النقد الأدبي الحديث ومدارسه الحديثة،ستانلي هايمان،ترجمة :إحسان عباس،بيروت، دار الثقافة، ص/15.
3. يُنظر: في نقد الشعر، محمود الربيعي،دار المعارف،مصر،ص/ 81.
4. يُنظر: مناهج النقد الأدبي،رؤية إسلامية،دار الفكر دمشق،ص/2
5. أوهاج الحداثة دراسة في القصيدة العربية الحديثة،د. نعيم اليافي،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق – 1993، ص/ 245.
6. يُنظر: النقد الفني دراسة جمالية وفلسفية،جيروم ستولنيتنر،ترجمة: د. فؤاد زكريا،دار الوفاء للطباعة والنشر،الإسكندرية،مصر،الطبعة الأولى، 2007م، ص/676 .
7. سرديات النقد في تحليل آليات الخطاب النقدي المعاصر،حسين خمري،دار الأمان،الرباط، المغرب، منشورات الاختلاف – الجزائر العاصمة – الجزائر،الطبعة الأولى، 2011م،ص/93.
8. اتجاهات نقد الشعر العربي في العراق (دراسة الجهود النقدية المنشورة في الصحافة العراقية بين 1958- 1990) د. مرشد الزبيدي،منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق ،1999م، ص/34.
9. يُنظر: بحوث في القراءة والتلقي،فيرناند هالين،فرانك شوير فيجن،ميشيل اوتان،ترجمة: د.محمد خير البقاعي،مركز الإنماء الحضاري، حلب – سوريا،الطبعة الأولى، 1998م، ص/87.
10. يُنظر: المدخل إلى مناهج النقد المعاصر،الإسكندرية،دار الوفاء،د.بسام فطوس،ص/41-42.
11. يُنظر: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب،محمد خطابي،المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء – المغرب،الطبعة الأولى، 1991م، ص/ 297.
12. مدخل إلى النقد الأدبي الحديث،د.سلافة صائب العزاوي،مكتبة القيروان للنشر والتوزيع، بغداد،2013م ،ص/25.
13. النقد الأدبي أصوله ومناهجه،ص/ 148.
14. يُنظر: في النقد الأدبي منطلقات وتطبيقات، د. فائق مصطفى،ود. عبدالرضا علي، كلية التربية – جامعة الموصل،ص/166، ويُنظر: آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي بحث في تجليات القراءة السياقية،د.محمد بلوحي،منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004م، ص/18-19.
15. مجلة المورد،العدد الأول،م1999،27م.
16. المصدر نفسه ص/72.
17. المصدر نفسه ص/72.
18. مدخل إلى مناهج النقد الأدبي المعاصر،ص/ 15.
19. النقد الأدبي الحديث،354.
20. مناهج النقد الأدبي،يوسف وغليسي، جسور للنشر والتوزيع،الطبعة الأولى،2007م، ص/22،ويُنظر: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة،ستانلي هايمن،ترجمة:إحسان عباس والدكتور محمد يوسف نجم،ج161/1،ويُنظر: في النقد الأدبي الحديث،ص/171.
21. النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ،ستانلي هايمن ،ترجمة: إحسان عباس ،الطبعة الأولى، الناشر دار الثقافة بيروت – لبنان، 1958م ج1،ص/ 15.
22. ظاهرة الاغتراب في شعر طرفة بن العبد ،دراسة في دلالات اللغة وإيحاءاتها، مجلة المورد،العدد الثاني،م27، 2000م، د. عبدالفتاح نافع.
23. نقد الشعر،لأبي الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي،دار الكتب العلمية بيروت – لبنان،ص/64.
24. الرمز في شعر السياب ديوان (أنشودة المطر أنموذجاً)،مناف جلال عبدالمطلب،دار الشؤون الثقافية،الموسوعة الثقافية، 2009م، ص/7.
25. يُنظر: الرمز الشعري عند الصوفية،د.عاطف جودة نصر، دار الأندلس،بيروت – لبنان،الطبعة الثالثة، 1983م، ص/31.
26. مجلة المورد،العدد الرابع،م26، 1998م.